حَوْلِيَّةُ سِمِنَارِ التَّارِيخِ الإِسلاميِّ والوسيط

٦

الهيئة المصرية العامة للكتاب

حَوْلِيَّةُ سِمِنَارِ التَّارِيخِ الإسلاميِّ والوسيط

مجلة سنوية محكمة تعني بالتاريخ الإسلامي والوسيط

يصدرها سمنار التاريخ الإسلامي والوسيط

بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية

حقوق الطبع محفوظة

للهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب

١٨٧٥٠

الترقيم الدولي

١٤٤٠هـ/٢٠١٨م

قطعة ٤ بلوك ٧ ـ المنطقة التاسعة ـ شارع د. رؤوف عباس ـ مدينة نصر ـ القاهرة

تليفون : ٠١١٢٧٣٨٩١٢ ـ ٢٤٧٢٨٢٩٤ ـ ٢٤٧٢٨٢٩٦ ـ فاكس : ٢٤٧٢٨٢٩٨

Email: Seehist1995@yahoo.com

الهيئة المصرية العامة للكتاب

حَوْلِيَّةُ سِمِنَارِ
التَّاريخِ الإسلاميِّ والوسيط

تُصْدرها

الجمعية المصرية للدِّراسات التاريخية

المراسلات : الأستاذ الدكتور أيمن فؤاد سيد

رئيس مجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

العدد السادس

القاهرة

٢٠١٨م

رئيس مجلس الإدارة أ. د/ أيمن فؤاد سيد

هيئة التحرير

رئيس التحرير أ. د/ حسين عبد الله مراد
مدير التحرير د/ محمد فوزي رحيل
المحررون : أ. د/ صلاح عاشور
أ. د/ عبير زكريا سليمان
د/ عبد الناصر عبد الحكم
أ.د/ نهلة أنيس مصطفى

الهيئة الاستشارية

أ.د/ إسحق تاوضروس عبيد
أ. د/ أيمن فؤاد سيد
أ.د/ حاتم عبد الرحمن الطحاوي
أ.د/ عفاف سيد صبرة
أ.د/ محمود إسماعيل عبد الرازق
أ.د/ يسري أحمد زيدان

الآراء الواردة بهذه المجلة تعبر عن وجهة نظر أصحابها ،
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الجمعية أو السمنار أو الناشر

شروط النشر

ـ أن يكون الباحث عضوًا في الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .

ـ أن يتسم البحث بالأصالة المنهجية العلمية ، والجدة في الموضوع .

ـ أن يكون البحث صحيح اللغة سلس الأسلوب واضح الدلالة .

ـ ألا يكون قد سبق نشره ، أو قُدِّمَ للنشر إلى جهة أخرى ، وألا يكون مستلًّا من رسالة علمية .

ـ ألا تزيد صفحات البحث عن ٣٠ ورقة .

ـ أن يكتب المتن بخط Simplified Arabic بنط ١٤ ، والعنوان الرئيس بنط ١٨ Black ، والعناوين الجانبية بنط ١٤ Black .

ـ الحواشي:

= الحواشي العربية بنط ١٢ Simplified Arabic حسب النظام المعمول به في هذا العدد .

= الحواشي اللاتينية بنط ١٠ Times New Roman حسب النظام المعمول به في هذا العدد .

ـ أن تذكر المعلومات الببلوجرافية للمصادر والمراجع كاملة عند أول ذكر لها في الحواشي ، استغناءً عن قائمة المصادر والمراجع .

ـ يسلم عدد ٢ نسخة ورقية من البحث لمقر الجمعية بمدينة نصر خلف مدرسة المنهل ، وترسل نسخة إلكترونية لمدير التحرير الدكتور/ محمد فوزي رحيل على البريد الإلكتروني raheela2010@gmail.com

ـ تحكيم البحوث يكون سِرِّيًا ، بمعرفة هيئة تحرير المجلة .

كلمة التحرير

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه . يسعد هيئة تحرير حولية سمنار ، التاريخ الإسلامي التي يصدرها سمنار التاريخ الإسلامي والوسيط بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية أن تقدم للقراء الكرام العدد السادس ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٨م من الحولية ، وهي الحولية التي أسسها الراحل المؤرخ الجليل الأستاذ الدكتور علي السيد علي ـ رحمه الله ـ عام ٢٠١١م . ويضم هذا العدد بين دفتيه أحد عشر بحثًا ، تطوف بنا عبر فرعَي التاريخ الإسلامي والوسيط؛ إذ يلحظ المطالع لبحوث العدد تنوع الدراسات المقدمة بين فرعَي التخصص ، كتبها مجموعة من الباحثين المجيدين من مختلف الجامعات المصرية ، وافتتح العدد بمقال حول العطاء العلمي لمؤسس السمنار أ .د/ علي السيد علي ـ طيب الله ثراه ـ بعنوان «علي السيد رائد دراسات الحرم القدسي الشريف» ، وبدءًا من هذا العدد تنوى أسرة التحرير افتتاح الأعداد القادمة بمقال حول سيرة أحد رواد تخصص التاريخ الإسلامي والوسيط الراحلين أملًا في حفظ سير هؤلاء الأعلام حتى تكون قدوة ونبراسًا لأجيال قادمة من المؤرخين .

وترحب أسرة السمنار بالمتخصصين في التاريخ الإسلامي والوسيط للمشاركة في جلسات السمنار الشهرية ، بإلقاء بحوثهم بشرط الأصالة المنهجية وجدة الموضوع ، ومن يرغب في نشر بحثه في الحولية سوف يقدم للتحكيم السري بمعرفة هيئة التحرير ، وما يجاز منها ينشر في الأعداد التالية إن شاء الله . كما يرحب السمنار بجميع المتخصصين والمهتمين بمختلف فروع التاريخ لحضور الجلسات لإثرائها بالنقاش المُثمر .

ويطيب لأسرة التحرير تقديم أسمى آيات الشكر والتقدير لمجلس إدارة الجمعية برئاسة المؤرخ الجليل والمحقق الكبير الأستاذ الدكتور أيمن فؤاد سيد ؛ لجهودهم الدؤوبة لازدهار الجمعية المصرية للدراسات التاريخية لتظل في صدارة الجمعيات التاريخية العربية .

والله من وراء القصد والهادي إلى سواء السبيل،،،،،،

أسرة التحرير

المحتـويات

الصفحة

على السيد علي رائد دراساتُ الحرمِ القدسيِّ الشريف
محمد فوزي رحيل ١١-١٦

أسرةُ ثيوفلاكت ودورُها السياسيُّ والدينيُّ في روما
محمد زايد عبد الله ١٧-٥٠

مكتباتُ الأديرة في ضوْءِ التيبيكا البيزنطيةِ
نعيمة محمد إبراهيم ٥١-٨٦

سفاراتُ العلماءِ في العصرينِ الغزنويِّ والسلجوقيِّ
مرفت رضا ٨٧-١٣٠

الوشايةُ وأثرُها في البلاطين المرابطيِّ والموحديِّ
أحمد إبراهيم رفاعي ١٣١-١٤٨

دولةُ الخطَا في الصينِ وتركستانَ وكرمانَ
عبد الناصر إبراهيم عبد الحكم ١٤٩-١٨٢

ادعاءُ النبوةِ في مصر والشامِ عصر سلاطينِ المماليكِ
محمود عبد المقصود ثابت ١٨٣-٢١٨

الكلابزيةُ في عصرِ سلاطينِ المماليكِ
أحمد عبد الله أحمد ٢١٩-٢٤٤

قراءةُ الجوقِ وقراؤها في مصَر خلال القرنينِ ٨-٩هـ
محمد جمال حامد الشوربجي ٢٤٥-٢٦٨

المجددونَ والتاريخُ الإسلاميِّ (الإمام محمد عبده نموذجًا)
حسام عبد الظاهر ٢٦٩-٣٠٢

صورةُ صلاحِ الدينِ في السينما الغربيةِ بينَ الحقيقةِ والخيالِ
فتحي عبد العزيز محمد ٣٠٣-٣٢٣

المجددون والتاريخ الإسلامي
(الإمام محمد عبده نموذجًا)

حسام أحمد عبد الظاهر*

تتعدد صور الخطاب التي تستخدم التاريخ الإسلامي ضمن آلياتها، وهذه الصور من الخطاب هي التي تنجح في إيصال التاريخ الإسلامي إلى قاعدة عريضة جدًا من المتلقين، في مقابل صورة الخطاب الأكاديمي الذي يتسم بدائرة ضيقة غالبًا يتحرك فيها، ولا يكون له من الانتشار والتأثير ما يكون لهذه الصور.

ومن أبرز هذه الصور الخطاب المدرسي المتمثل في المقررات الدراسية التي تُشكل وعي قطاعات عريضة من الناس حول التاريخ الإسلامي، وأيضًا الخطاب الدرامي الذي يُخصص بعض صوره في السينما والمسرح والتليفزيون لتناول التاريخ الإسلامي، وكذلك الخطاب الديني الذي من نماذجه الدور الذي يقوم به الخطباء والدعاة المشهورين بالتأثير الشعبي الكبير في نقل معرفة ما بالتاريخ الإسلامي إلى الجمهور... إلى غير ذلك من صور الخطاب التي تُحدث المعرفة بالتاريخ الإسلامي. وهذا البحث يتناول الخطاب التجديدي الذي يكون تأثيره كبيرًا على النخبة في المدى القريب، ثم في الكافة على المدى البعيد.

وفي البداية توجد مقدمة ضرورية تختص بالتجديد من ناحية والمجددين والتاريخ الإسلامي من ناحية ثانية:

---

* باحث بمركز تحقيق التراث ـ دار الكتب والوثائق القومية.

أولًا : بالنسبة للتجديد فإنه جاء من تجدد الشيء أي صار جديدًا[١] والعرب تقول هذا طريق جدد إذا كان مستويًا لا جدب فيه ولا وعوثة ، وهذا الطريق أجد الطريقين أي أوطؤهما وأشدهما استواء[٢]. وقد ارتبط مصطلح التجديد في التاريخ الإسلامي بالدين والموقع الحضاري له في إحداث الأثر على جميع الجوانب الأخرى ، والنص الديني الأساس والعمدة في موضوع التجديد هو قول الرسول ﷺ : «إن الله عز وجل يبعث لهذه الأمة على رأس كلِّ مِئة سنةٍ من يُجَدِّدُ لها دينَها»[٣].

وفي العصر الحديث تشعبت معاني مصطلح التجديد ، وتنوعت مضامينه؛ وذلك لتنوع خطاب التجديد بين تيارات مختلفة المشارب والرؤى رغم اتفاقهم على ضرورة التجديد كمطلب ملح ، وإشكالية حقيقية تواجه الأمة[٤].

ثانيًا : بالنسبة للمجددين والتاريخ الإسلامي : حاول البعض عبر التاريخ الإسلامي رصد المجددين في كل قرن من قرون التقويم الهجري[٥] ، وظهرت آراء

---

(١) الرازي (محمد بن أبي بكر بن عبد القادر ، المتوفى بعد ٦٦٦هـ/١٢٦٨م) : مختار الصحاح. تحقيق : محمود خاطر. بيروت ـ مكتبة لبنان ناشرون ١٩٩٥م ، ١: ١١٩؛ إبراهيم مصطفى ، وآخرون : المعجم الوسيط. القاهرة ـ مجمع اللغة العربية ١٩٦٠م ، ١: ١٠٩.

(٢) ابن منظور (محمد بن مكرم بن علي ، المتوفى ٧١١هـ/١٣١١م) : لسان العرب. بيروت ـ دار صادر ١٩٥٥م ، ٣: ١٠٧.

(٣) أبو داود (سليمان بن الأشعث ، المتوفى ٢٧٥هـ/٨٨٨م) : سنن أبي داود. تحقيق : محمد عوامة. جدة ـ دار القبلة ، ط ٢، ٢٠٠٤م ، ٥: ٣٥؛ الطبراني (سليمان بن أحمد ، المتوفى ٣٦٠هـ/٩٧١م) : المعجم الأوسط. القاهرة ـ دار الحرمين ، ١٤١٥هـ ، ٦: ٣٢٤.

(٤) أحمد عرفات القاضي : تجديد الخطاب الديني. القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٨م ، ٢٢.

(٥) من هذه الكتب : السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر ، المتوفى ٩١١هـ/١٥٠٥م) : التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مائة. تحقيق : عبد الحميد شانوحة. مكة المكرمة ـ دار الثقة ١٤١٠هـ؛ رفاعة =

عديدة في هذا الإطار، وتقريبًا لم تتفق الآراء إلا على مجدد واحد في القرن الأول هو الخليفة عمر بن عبد العزيز (٦١-١٠١هـ/٧٨١-٧٢٠م)، ومجدد واحد في القرن الثاني هو الإمام الشافعي (١٥٠-٢٠٤هـ/ ٧٦٧-٨٢٠م)، في مقابل أكثر من واحد في كل قرن آخر من القرون الهجرية. ومن الأسماء العديدة التي طُرحت في هذا الصدد الأئمة: ابن سريج (٢٤٩-٣٠٦هـ/٨٦٣-٩١٨م)، والأشعري (٢٦٠-٣٢٤هـ/٨٧٤-٩٣٦م)، وأبو بكر ابن الباقلاني (٣٣٨-٤٠٣هـ/ ٩٥٠-١٠١٣م)، وأبو حامد الغزالي (٤٥٠-٥٠٥هـ/ ١٠٥٨-١١١١م)، ومحيي الدين النووي (٦٣١-٦٧٦هـ/١٢٣٣-١٢٧٧م)، وابن دقيق العيد (٦٢٥-٧٠٢هـ/١٢٢٨-١٣٠٢م)، وسراج الدين البلقيني (٧٢٤-٨٠٥هـ/ ١٣٢٤-١٤٠٣م)... وغيرهم.

والملاحظ مبدئيًا في معظم الأسماء التي طُرحت في التاريخ الإسلامي باعتبارها مجددين أنه لم يكن لهم علاقة مباشرة وقوية بالتاريخ أو الكتابة فيه، اللهم إلا إذا أخذنا رأي السيوطي ـ الذي له إسهامات تاريخية عديدة ـ على نفسه بأنه مجدد القرن التاسع[1]. وهذه العلاقة ستظهر بقوة بعد ذلك في المجددين خلال القرنين الماضيين أي القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، وهذا مبعثه في رأيي هو تعاظم التقدم الغربي في هذه الفترة في مقابل التراجع الحضاري الذي أصاب العالم

= الطهطاوي: القول السديد في الاجتهاد والتجديد. دراسة وتحقيق: حسام عبد الظاهر. (تحت الطبع)؛ عبد المتعال الصعيدي: المجددون في الإسلام من القرن الأول إلى الرابع عشر. القاهرة ـ مكتبة الآداب، د.ت؛ أمين الخولي: المجددون في الإسلام. القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١م؛ سامح كريم: موسوعة أعلام المجددين في الإسلام. القاهرة ـ الدار العربية للكتاب ٢٠١٠م.

[1] يقول السيوطي:

وهذه تاسعة المئين وقد أتت ولا يخلف ما الهادي وعد
وقد رجوت أنني المجدد فيها ففضل الله ليس يجحد

(انظر: التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مائة، ٧٤).

الإسلامي، الأمر الذي جعل المجددين يلجأون إلى التاريخ الإسلامي في محاولة لرصد أسباب هذا التراجع، أو سعيًا ناحية إحياء القيم التي أدت إلى ازدهار الحضارة الإسلامية في العصر الوسيط... إلى غير ذلك.

وما يهمني في هذه الدراسة هو إلقاء الضوء على الموقع والدور الذي يقوم به التاريخ الإسلامي في خطاب المجددين، متخذًا في ذلك الإمام محمد عبده (١٢٦٦-١٣٢٣هـ/١٨٤٩-١٩٠٥م) نموذجًا، وهو يعد علم الأعلام في التجديد والإصلاح في العصر الحديث[١].

أولًا: أهمية التاريخ الإسلامي عند الإمام محمد عبده

آمن محمد عبده بأهمية التاريخ بوجه عام، ويذكر في ذلك أن قراءة التاريخ واجب من الواجبات الدينية، وركن من أركان اليقين، فلابد من تحصيله[٢]، كما أشار إلى الآثار الإيجابية التي تُحدثها قراءة كتب التاريخ من أنها تعمل على «تنوير الأفكار وتهذيب الأخلاق»[٣]، وأن «كثيرًا من ذوي القرائح الجيدة، إذا أكثروا من دراسة الفنون الأدبية، ومطالعة أخبار الأمم، وأحوالهم الحاضرة، تتولد في عقولهم أفكار جليلة»[٤].

---

(١) يمكن الرجوع في ذلك على سبيل المثال إلى: الصعيدي: المجددون في الإسلام، ٥٣٠-٥٣٨؛ تشارلز آدمس: الإسلام والتجديد في مصر. ترجمة: عباس محمود، تقديم: مصطفى عبد الرازق، قدم هذه الطبعة: أحمد زكريا الشلق. القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٥م، ٩٩-١٦٨؛ السيد يوسف: رائد الاجتهاد والتجديد في العصر الحديث الإمام محمد عبده. القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٧م؛ أحمد عرفات القاضي: تجديد الخطاب الديني، ٩٤-٩٦ و١٨٤-٢٠٧. وغيرها.

(٢) مه جبين أختر: مساهمة الشيخ محمد عبده في الأدب العربي. حيدر أباد - الهند - ٢٠٠٤م، ٢٢٠.

(٣) محمد عبده: الكتب العلمية وغيرها. (ضمن: محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام). القاهرة - دار الفضيلة، ٢٠٠٦م، ٢: ١٥٤.

(٤) محمد عبده: خطأ العقلاء. (ضمن: محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام)، ١: ١١٩.

وهناك رابط قوي وظاهر بين الفكر التجديدي والإصلاحي للإمام محمد عبده وبين إدراكه لدور التاريخ الإسلامي في تحقيق ما يصبو إليه من أهداف لنهضة الأمة الإسلامية. وهذا الرابط يظهر بجلاء في إحدى رسائله للعالم الهندي مولوي محمد واصل التي يقول له فيها: إنه يعمل على «كتابة رسائل في تنبيه الأمة الإسلامية إلى تلافي أمرها، ومبادرتها إلى جمع كلمتها، صونًا لنفسها عن التهلكة، وحفظًا لما بقي لها من غول الفناء»، وأنه بدأ ذلك بكتابة رسالة «تبين حال العرب في الجاهلية، على وجه الإجمال، ثم ما ساق الله إليها زمن فيض الخير ببعثة النبي ﷺ، ثم أتقدم بعد ذلك إلى ذكر سيرة النبي وخلفائه الأربعة، ثم أختم الكلام»[1].

يُفهم من ذلك أن محمد عبده كان له مشروع تاريخي ينوي كتابته عن عصر الرسول والخلفاء الراشدين والفترة السابقة المشتملة على تاريخ العرب قبل الإسلام ولكن هذا المشروع لم يتحقق. وهذا ليس معناه غياب التاريخ الإسلامي عن كتابات محمد عبده، حيث يمكن لقارئ هذه الكتابات أن يجد الكثير من الإشارات التاريخية سارية في أكثر كتبه ورسائله ومقالاته، وهو ما يتطرق إليه هذا البحث لاحقًا.

وإدراكًا منه لأهمية التاريخ الإسلامي قام محمد عبده بنقد هؤلاء الذين لا يدرسون التاريخ، قائلًا أنه هناك: «من الناس من ينفر من التاريخ ... وما أضر هؤلاء إلا بأنفسهم وأمتهم!! فقد قطعوا الصلة بينهم وبين القدوة الصالحة من سلفهم حتى صار أكثر المسلمين لا يعرفون مبدأ الإسلام ولا كيفية نشأته ولا كيف انتسبوا إليه، فالتاريخ يعرف الإنسان بنفسه من حيث هو متدين إن كان له دين،

---

[1] الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده. تحقيق وتقديم: محمد عمارة. القاهرة ـ دار الشروق ١٩٩٣م، ٢: ٣٦٦-٣٦٧.

أو من حيث هو إنسان إن كان من بني الإنسان»[١]. ويشير عبده إلى الرابطة اللصيقة التي لا انفصام لها بين العلم التاريخي والانتماء للإسلام بقوله: «إن الجاهل بالتاريخ لا يصلح أن يكون فردًا من الأمة الداعية إلى الإسلام الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر في الأمور العامة على الوجه الذي يرجي قبوله»[٢].

ومما يبين إدراك عبده لأهمية التاريخ الإسلامي قيامه بالتشجيع على البحث والكتابة في هذا التاريخ، ويظهر ذلك على سبيل المثال قوله بعد حديثه عن الإنجازات المتنوعة في الحضارة الإسلامية: «ذلك يحتاج إلى سفر كبير، وقد أحصى ذلك أهل المعرفة والإنصاف من فلاسفة الأوروبيين ومؤرخيهم وربما يتيسر لأبناء الأمة العربية أن ينشروا ذلك لإخوانهم حتى يعرفوا ما كان عليه أسلافهم»[٣]. كما أنه عمل على بعث الهمم واستنهاض العزائم بالمقارنة بين الماضي والحاضر، فيقول: «فلينظر المصريون وغيرهم من الشرقيين كيف انقلبت الحال، وماذا أعقبت من سوء المثال»[٤].

ثانيًا: الإمام محمد عبده مدرسًا للتاريخ الإسلامي

في أواخر سنة ١٢٩٥هـ (أواخر سنة ١٨٧٨م) عُين محمد عبده مدرسًا للتاريخ الإسلامي بمدرسة دار العلوم[٥]. وللأسف الشديد لم تصل إلينا محاضراته التي كان يلقيها على الطلبة آنذاك، إلا أنه من المعروف أنه اعتمد في تدريسه على شرح مقدمة ابن

---

(١) محمد عبده، ومحمد رشيد رضا: تفسير القرآن الحكيم المسمى تفسير المنار. القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠م، ٤: ١٥: ٣٣.

(٢) المصدر نفسه، ٤: ١٥: ٣٣.

(٣) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، ٣: ٣٢٤.

(٤) المصدر نفسه، ٣: ٣٢٣.

(٥) عثمان أمين: العروة الوثقى للأفغاني ومحمد عبده. القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤م، ١٥.

خلدون[١] (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٦م). ويروى أنه قام بتأليف كتاب دراسي لطلبته في «علم الاجتماع والعمران» فُقِد ، ولم يُعثر عليه[٢] حتى الآن. ويجدر الذكر أنه ممن تتلمذ على يد محمد عبده في دار العلوم اثنين من كبار المؤرخين فيما بعد وهما الشيخين محمد الخضري (١٢٨٩-١٣٤٥هـ/١٨٧٢-١٩٢٧م) ، وعبد الوهاب النجار (١٢٧٨-١٣٦٠هـ/١٨٦٢-١٩٤١م) اللذين كانا من أوائل من قاموا بتدريس التاريخ الإسلامي في الجامعة المصرية بعد افتتاحها سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م.

لقد كان في وسع محمد عبده أن يقوم بتدريس التاريخ الإسلامي اعتمادًا على تلخيص من الطبري (ت٣١٠هـ/٩٢٣م) أو غيره من كبار مؤرخي الإسلام من رواة الحوادث إلا أنه آثر أن يقوم بالتدريس اعتمادًا على مقدمة ابن خلدون. وهو الأمر الذي يدل على تفضيله للرؤية الناقدة في كتابة التاريخ الإسلامي وقراءته والمحاضرة بشأنه[٣].

وتأتي أهمية قيام محمد عبده بشرح مقدمة ابن خلدون ، وليس عرضها وتقديمها كما هي ، أو اختيار كتاب مليء بالأحداث التاريخية والروايات المختلفة عبر ناحيتين : أولاهما : طبيعة المقدمة نفسها القائمة على النظر والتحليل التاريخي؛ فابن خلدون هو الذي يؤكد على أن فن التاريخ «في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول ، والسوابق من القرون الأول... وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل

---

(١) جمال الدين الشيال : التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن التاسع عشر. القاهرة ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨م ، ١٦٥-١٦٦.

(٢) أحمد أمين : زعماء الإصلاح في العصر الحديث. القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٨م ، ٣٠٨؛ عباس محمود العقاد : عبقري الإصلاح والتعليم محمد عبده. القاهرة ـ وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، د.ت ، ٢٧٠؛ آدامس : الإسلام والتجديد ، ٢٧١.

(٣) انظر على سبيل المثال : زينب الخضيري : فلسفة التاريخ عند ابن خلدون. القاهرة ـ دار الثقافة للنشر والتوزيع ١٩٩١م .

للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق»[١]. وثانيتهما: طبيعة الشرح الذي سيقدمه محمد عبده للمقدمة، وهو الذي يأتي وفقًا لإيمانه الذي بينه في مقولته: «إن الكتب لا تفيد القلوب العمي...لا تفيد الكتب إلا إذا صادفت قلوبًا متيقظة عالمةً بوجوه الحاجة إليها تسعى في نشرها»[٢]. وهو الأمر الذي من المرجح عمل محمد عبده على القيام به عند شرحه لمقدمة ابن خلدون.

ومما قد يدل على حجم الأثر الذي قام به محمد عبده في تدريسه للتاريخ الإسلامي قيام الخديو توفيق بفصله من دار العلوم[٣]. ويقول العقاد حول أسباب الفصل: «فصل منها بعد أشهر معدودات لغير سبب مذكور في قرار فصله، ولكنه كان مفهومًا بين المطلعين على سياسة القصر قبيل الثورة العرابية، فإنه كان قد عرف بالدعوة في دروسه إلى المبادئ الخطرة التي أشارت إليها الحكومة في قرار نفيها للسيد جمال الدين، وكان أكثر من ذلك تلميذ جمال الدين الأول، فكان خطر جمال الدين أهون عليهم من خطر هذا التلميذ، وهم يكلون إليه تعليم المعلمين!»[٤].

ومن المحتمل اشتمال تدريسه على توظيف التاريخ الإسلامي في دعم رسالته التقريرية الإصلاحية والتنويرية واستخدامه وفقًا لقوله «وسيلة لإصلاح الفاسد وتقويم المعوج» و«بث آراءه في الحرية السياسية والعدالة الاجتماعية»[٥]. وهو الأمر

---

(١) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد، المتوفى ٨٠٨هـ/١٤٠٦م): مقدمة ابن خلدون. تحقيق: علي عبد الواحد وافي. القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٦م، ١: ٢٨٢.

(٢) محمد عبده، ورشيد رضا: تفسير المنار، ١: ١: ١٢ـ١٣.

(٣) عثمان أمين: رواد الوعي الإنساني في الشرق الإسلامي. القاهرة ـ وزارة الثقافة والإرشاد القومي ١٩٦١م، ٥١.

(٤) العقاد: عبقري الإصلاح والتعليم، ١٧٨.

(٥) عثمان أمين: العروة الوثقى، ١٥.

الذي أدى في النهاية إلى أن يأمر الخديو توفيق بعزله من دار العلوم خوفًا مما يبثه محمد عبده في محاضراته التاريخية من أفكار.

هذا ومن الجدير بالذكر أن محمد عبده له تجربة أخرى في تدريس التاريخ الإسلامي قام بها في المدرسة السلطانية ببيروت أثناء نفيه إليها (١٨٨٥-١٨٨٩م) إلى جانب تدريسه للمنطق والتوحيد والبلاغة والفقه، وهي المدرسة التي كان للإمام دور كبير في إصلاح برامجها ونقلها إلى درجة أرقى بكثير مما كانت؛ نقلها من شبه مدرسة أولية إلى شبه مدرسة عالية[١]. وأيضًا كان التاريخ الإسلامي يتخلل دروسه الأخرى في غير التاريخ كدروسه في التوحيد التي تحولت بعد عودته إلى مصر إلى مؤلف يتمثل في كتابه (رسالة التوحيد).

ثالثًا : التاريخ الإسلامي في المشروع التربوي للإمام محمد عبده

من أهم الإسهامات الفكرية للإمام محمد عبده ما قدمه في المجال التربوي والتعليمي حتى أن العقاد سمى كتابه عنه (عبقري الإصلاح والتعليم)، وقد يرجع اهتمام محمد عبده بالنواحي التربوية لأنها تعتبر أحد المعالم الأساسية في مشروع الإصلاح والتجديد، كما أنها هي التي يمكن من خلالها جني ثمار هذا المشروع . ومن الطبيعي ألا يغيب التاريخ عامة والتاريخ الإسلامي خاصة عن الفكر التربوي لدى محمد عبده، وهو ما نراه واضحًا في تقريره لإصلاح المحاكم الشرعية، الذي يرى فيه أنه من الضروري تدريس «شيء من التاريخ» في شهادة العالمية لكل من يطلب وظائف القضاء والإفتاء من طلبة الجامع الأزهر وما أُلحق به[٢].

---

(١) أحمد أمين : زعماء الإصلاح، ٣٢٤.

(٢) محمد عبده : تقرير مفتي الديار المصرية في إصلاح المحاكم الشرعية. القاهرة ـ مطبعة المنار ١٩٠٠م، ١٤.

كما أن اللائحة التي وضعها لإصلاح التعليم العثماني، وهي اللائحة التي كتبها في منفاه ببيروت، ورفعها إلى شيخ الإسلام بالآستانة في سنة ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٧م وذلك بعد أن وقع عليها مع بعض وجهاء المسلمين ومثقفيهم بالشام تضمنت في التعليم الديني الابتدائي لطبقة العامة المسلمين كتاب في التاريخ[١] يتضمن بأسلوب مختصر سهل التناول:

١. مجمل سيرة النبي ﷺ.

٢. سيرة أصحاب الرسول من وجه ما يتعلق بالأخلاق الكريمة والأعمال العظيمة وفداء الدين بالأرواح والأموال.

٣. الإلمام بالسبب في تسلط الإسلام على الأمم في وقت قصير مع قلة أهله وكثرة معارضيه وقوتهم، وإثبات أن ذلك بسر الصدق في المكافحة والاتحاد في المجاهدة.

٤. تاريخ الخلفاء العثمانيين.

وكذلك ضمت اللائحة في التعليم الديني الوسط للطبقة المرشحة للوظائف كتاب تاريخ ديني[٢]، يحتوي على:

١. تفصيل سيرة النبي ﷺ.

٢. سيرة أصحاب الرسول.

٣. الفتوحات الإسلامية العظيمة في القرون المختلفة.

٤. ما جاء به الخلفاء العثمانيون من ذلك.

٥. يبين في هذا الكتاب ما كانت تنبسط إليه سيادة الإسلام من أقطار الأرض.

---

(١) محمد عبده: لائحة إصلاح التعليم العثماني. (ضمن: تاريخ الأستاذ الإمام)، ٢: ٥١٣.

(٢) المصدر نفسه، ٢: ٥١٤.

٦. يودع فيه من العبارات ما يحرك القلوب إلى طلب المفقود، فضلًا عن حفظ الموجود.

٧. بسط أسباب التقدم الإسلامي بأدق مما كان في السابق.

ويتحدث محمد عبده ضمن التعليم الديني العالي لطبقة المعلمين والمرشدين أنه يجب اشتماله بجانب تفسير القرآن، واللغة العربية، والحديث، والفقه، والأخلاق على «فن التاريخ، القديم والحديث»[١]، وهو في منظوره يضم:

١. سيرة النبي ﷺ بالتفصيل.

٢. سير أصحاب الرسول.

٣. تاريخ الانقلابات التي عرضت في الممالك الإسلامية الأولى.

٤. تاريخ الدولة العثمانية وما كان منها في إنهاض الإسلام من كبوته التي كباها في القرون الوسطى بعد الحروب الصليبية.

٥. التوفيق في أسباب ما وصلت إليه الملة في هذه الأيام، ليتبين أنه لا سبب لذلك إلا الجهل بالدين، والانحراف عن أحكامه، وانشقاق عصا الأمة بالخلاف الذي لا طائل له.

والملاحظ في هذه اللائحة أن محمد عبده يدرج التاريخ الإسلامي في مشروعه التعليمي ضمن التعليم الديني. ويؤكد على ذلك في أكثر من موطن؛ فيقول على سبيل المثال عن محتويات كتاب التاريخ للتعليم الوسط: «الإتيان على كل هذا من وجه ديني محض، فإن ذكرت فيه الوجوه السياسية كانت تابعة للغرض الديني»[٢]. كما يُحدد الهدف من التدريس في مشروعه بقوله «التدريس في جميع تلك الدرجات إنما يقصد منه إشراب القلوب حب الدين وتوقيره، وجعله الغاية

---

[١] محمد عبده: لائحة إصلاح التعليم العثماني. (ضمن: تاريخ الأستاذ الإمام)، ٢: ٥١٦.

[٢] المصدر نفسه، ٢: ٥١٤.

المطلوبة من كل عمل، حتى تكون للملة وجهة واحدة يقصدونها بأعمالهم، فتلتئم قواها الروحية والمالية لخدمة الدين»[١].

ولعل رؤية محمد عبده في ذلك ترجع إلى عدم وضوح علمية التاريخ وافتراقه عن الدين كمطلقات، وهي المشكلة التي لا زال الكثيرون يقعون في الخلط فيها بين الفعل التاريخي البشري الذي يصيبه الخطأ والصواب، وبين المطلق الديني الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

رابعًا: طريقة تعامل الإمام محمد عبده مع مصادر التاريخ الإسلامي

لما كان أحد المعالم الرئيسة لفكر محمد عبده هي «تحرير الفكر من قيد التقليد» كما ذكر هو نفسه[٢]. فإن ذلك انسحب أيضًا على التعامل مع روايات التاريخ الإسلامي ومصادره، التي يجب عدم التسليم بما ورد فيها من أحداث دون إعمال العقل والفكر، وهو الأمر الذي نجده في نقده للمصادر التاريخية، حتى ولو كانت هذه المصادر شهيرة جدًا ويكثر الاعتماد عليها في النقل وروايات التاريخ الإسلامي العديدة. ويقول في ذلك: «لا يستغني مطالع التاريخ عن قوة حاكمة يميز بها بين ما ينطبق على الواقع وما ينبو عنه»[٣].

ومما قام محمد عبده بنقده من المصادر التاريخية المعروفة كتاب المغازي المنسوب للواقدي[٤] (ت٢٠٧هـ/٨٢٣م). وقد خرج نقده بنتيجة مفادها أن هذا الكتاب لا تصح الثقة به والاعتماد عليه في الكتابة التاريخية. وقد بنى نقده على

---

(١) محمد عبده: لائحة إصلاح التعليم العثماني. (ضمن: تاريخ الأستاذ الإمام)، ٢: ٥١٧.

(٢) مذكرات الإمام محمد عبده. عرض وتحقيق وتعليق: طاهر الطناحي. القاهرة ـ دار الهلال ١٩٩٣م، ٢٦.

(٣) محمد عبده: كتب المغازي وأحاديث القصاصين. (ضمن: تاريخ الأستاذ الإمام)، ٢: ٣٥٠.

(٤) المصدر نفسه، ٢: ٣٤٦ـ٣٥٠.

عاملين أساسين:

أولهما : أنه مكذوب النسبة على الواقدي ، وقد اعتمد في التدليل على ذلك بثلاثة أسباب ، هي:

١. أن الناظر في كتاب المغازي يكشف له أن أسلوب الكتاب يتطابق مع أسلوب المتأخرين ، في مقابل أن الواقدي من أهل العلم الذين اتصفوا بـ «متانة التأليف ، وجزالة اللفظ ، وبداوة التعبير».

٢. كما أن كلام الصحابة مثل خالد بن الوليد وأبي عبيدة وغيرهما لا ينطبق على مذاهبهم في النطق ، الذي يتشابه مع أساليب القصاصين في الديار المصرية من أبناء القرنين الثامن والتاسع الهجريين.

٣. كما أن أسلوب المؤلف وهو «مدني المنبت عراقي المقام» «لا يرى عليه لهجة المدنيين ولا العراقيين».

وثانيهما : هو «ضعف الواقدي نفسه في رواية المغازي كما صرح العلماء» ويؤكد ذلك بروايات عن ابن خلكان[1] (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م) وغيره عن ضعف روايات الواقدي ، وأنه ليس من أهل الثقة.

ونتيجة لهذا كله يقول محمد عبده عن كتاب المغازي : «لو حكمت بأنه مكذوب عليه ، مخترع النسبة إليه ، لم أكن مخطئًا». وبذلك نرى اتباع محمد عبده للمنهج النقدي للنصوص وتحقيق نسبتها إلى أصحابها ، وفرز الصادق من المدسوس من الأخبار في كتب التراث.

وقد شمل نقد عبده مصادر أخرى عديدة مثل : «قصص روايات تنسب إلى كعب الأحبار أو الأصمعي ومن شاكلهما ممن عرفوا بالرواية ، فأولع الناس بالنسبة

---

[1] انظر : ابن خلكان (أبو العباس محمد بن محمد ، المتوفى ٦٨١هـ/١٢٨٢م) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق : إحسان عباس. بيروت ـ دار صادر ١٩٧١م ، ٤: ٣٤٨.

إليهم من غير تفريق بين صحيح وباطل، فجميع ذلك مما لا اعتداد به عند العلماء ولا ثقة بما يندرج فيه»[١].

كما تطرق محمد عبده إلى نقد مصادر المرويات الشعبية والمأثورات الشفوية المدونة ويفسر مضمونها بأنها «ما يذكر فيها تاريخ أقوام على غير الواقع، وتارة تكون بعبارة سخيفة مخلة بقوانين اللغة، ومن هذا القبيل كتب: أبو زيد، وعنتر عبس، وإبراهيم بن حسن، والظاهر بيبرس». وهي مصادر يرى عبده عدم الاعتماد عليها لأنها «كتب الأكاذيب الصرفة»[٢]، وأن «من كانت رغبته متجهة إلى كتب «أبو زيد» وما معها من الكتب «كعنتر عبس» وغيرها أن يستبدلها بكتب التاريخ الصحيحة، كتاريخ المسعودي، وتاريخ إظهار أنوار الجليل لحضرة رفاعة بك، وتاريخ الكامل لابن الأثير»[٣]. ويذكر في موطن آخر أن «العمدة في النقل التاريخي كتب الحديث كصحيحي البخاري ومسلم وغيرهما من الصحاح، ويتلوها كتب المحققين من المؤرخين كابن الأثير والمسعودي وابن خلدون وأبي الفداء وأمثالهم»[٤].

ومن الواضح أن رأي محمد عبده لا يتوافق مع ما تراه بعض اتجاهات البحث التاريخي الحديث من اعتماد الكتابات الفولكلورية كأحد المصادر التاريخية غير المباشرة، وأن المحك في استخدامها هو كيفية قراءة ما بين سطورها وتفسير رواياتها لا على أساس حرفية النصوص التي ترد بها، ثم مقارنتها بالروايات في المصادر التاريخية التقليدية.

---

(١) محمد عبده: كتب المغازي وأحاديث القصاصين، (ضمن: تاريخ الأستاذ الإمام)، ٢: ٣٥٠.

(٢) محمد عبده: الكتب العلمية وغيرها، (ضمن: تاريخ الأستاذ الإمام)، ٢: ١٥٤.

(٣) المصدر نفسه، ٢: ١٥٦.

(٤) محمد عبده: كتب المغازي وأحاديث القصاصين، (ضمن: تاريخ الأستاذ الإمام)، ٢: ٣٥٠.

هذا عن نقد المصادر أما فيما يتعلق بنقد الروايات يعتمد محمد عبده على ما وصل إليه المسلمون في نقد الأسانيد، وينقد بعض الروايات بناءً على ذلك، مثل قوله عن سلسلة الطريق عند المتصوفة التي يزعمون أنها متصلة بأبي بكر الصديق أو بعلي بن أبي طالب بأنه «ليس لهم في ذلك سند متصل يحتج بمثله»[١].

وعلى الرغم من ذلك إلا أن الملاحظ أن عبده ينتصر للاتجاه القائل بالنقد العقلي للمتن، وعدم الاعتداد بالسند وحده في الحكم على صحة الروايات والشواهد. ذلك أن الرواة ورجالات السند، لا نستطيع نحن بما لدينا من معلومات، أن نجعل من مروياتهم هذه حججًا تعلو حجة العقل الذي هو أفضل القوى الإنسانية على الإطلاق[٢].. وعن قيمة هذه الأسانيد يتحدث قائلًا: «وما قيمة سند لا أعرف بنفسي رجاله، ولا أحوالهم، ولا مكانهم من الثقة والضبط؟ وإنما هي أسماء تتلقفها المشايخ بأوصاف نقلدهم فيها، ولا سبيل لنا إلى البحث فيما يقولون؟!»[٣]. ويُفسر أخذه بهذا المنهج بـ«إن ثقة الناقل بمن ينقل عنه حالة خاصة به، لا يمكن لغيره أن يشعر بها حتى يكون له مع المنقول عنه في الحال مثل ما للناقل معه، فلابد أن يكون عارفًا بأحواله وأخلاقه ودخائل نفسه، ونحو ذلك مما يطول شرحه ويحصل الثقة للنفس بما يقول القائل»[٤].

ونتيجة لذلك نجد لدى محمد عبده جرأة في رفض بعض الروايات ورد الأسانيد اعتمادًا على بطلان ما تضمنته من وقائع غير سليمة ـ من وجهة نظره ـ تاريخيًا. ومن ذلك رفضه للرواية القائلة بأن الصحابيين سعد بن أبي وقاص

---

(١) محمد عبده، ورشيد رضا: تفسير المنار، ٣: ١٤: ٢٣٨.

(٢) محمد عمارة: الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، ١: ١٨٦.

(٣) المصدر نفسه، ٣: ٢١٥. (من رسالة للإمام إلى أحد علماء الهند).

(٤) محمد عبده، ورشيد رضا: تفسير المنار، ١: ٢: ٢٣٨.

وعبد الرحمن بن عوف[١] هما من نزلت فيهما الآية ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾[٢]. فيقول عبده تعليقًا على ذلك بالرغم من أنها رواية صحيحة الإسناد. «إني أجزم ببطلان هذه الرواية مهما كان سندها، لأنني أبرئ السابقين الأولين كسعد وعبد الرحمن مما رموا به...»[٣].

خامسًا: أبعاد تاريخية في تفسير محمد عبده للقرآن وفتاويه

يعتبر التاريخ أحد أدوات المفسر الضرورية، وهو ما يشير إليه محمد عبده بقوله: «القرآن قريب لطالبه متى كان عارفًا باللغة العربية ومذاهب العرب في الكلام وتاريخهم وعوائدهم أيام الوحي»[٤].

ولما كان الإمام محمد عبده قام بإملاء دروس في تفسير القرآن لمدة ست سنوات (١٣١٧-١٣٢٣هـ/١٨٩٩-١٩٠٥م) قرأ فيها خمسة أجزاء[٥]، فإنه من المفيد النظر في تناوله للتاريخ خلال هذه الدروس.

يظهر في التفسير أهمية البعد التاريخي، الذي يبينه عبده بقوله: «يجب على

---

(١) انظر: النسائي (أحمد بن شعيب، المتوفى ٣٠٣هـ/٩١٥م): المجتبى في السنن (السنن الصغرى). تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة. حلب ـ مكتب المطبوعات الإسلامية، ١٩٨٦م، ٦: ٢؛ الحاكم (محمد بن عبد الله بن حمدويه، المتوفى ٤٠٥هـ/١٠١٤م): المستدرك على الصحيحين. تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا. بيروت ـ دار الكتب العلمية ١٩٩٠م، ٢: ٧٦.

(٢) النساء: ٧٧.

(٣) محمد عبده، ورشيد رضا: تفسير المنار، ٥: ٢٢: ٢١٤.

(٤) محمد عبده: لائحة إصلاح التعليم العثماني، (ضمن: تاريخ الأستاذ الإمام)، ٢: ٥٥١.

(٥) محمد عبده، ورشيد رضا: المصدر السابق، ١: ١: ١٤.

من يريد الفهم الصحيح أن يتتبع الاصطلاحات التي حدثت في الملة، ليفرق بينها وبين ما ورد في الكتاب، فكثير ما يفسر المفسرون كلمات القرآن بالاصطلاحات التي حدثت في الملة بعد القرون الثلاثة الأولى، فعلى المدقق أن يفسر القرآن بحسب المعاني التي كانت مستعملة في عصر نزوله»[١]. وهنا يشير محمد عبده إلى فقه اللغة أو الفيلولوجيا Philology، الذي يعد أحد الأسس الكبرى في تعامل الباحثين مع النصوص التاريخية.

ويُدلل على ضرورة معرفة مفسر القرآن بالتاريخ عامة بقوله: «أنا لا أعقل كيف يمكن لأحد أن يفسر... وهو لا يعرف أحوال البشر، وكيف اتحدوا، وكيف تفرقوا...»[٢].

والبعد التاريخي المرتبط بالتاريخ الإسلامي لا يعني عنده معرفة أسباب النزول فقط، وهو ما يبرز في تعليقه على الرواية التاريخية القائلة بأن سبب نزول آية ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾[٣] أنها ترتبط بيهود المدينة في عصر الرسول ﷺ وأنهم تجادلوا مع وفد نصارى نجران عند النبي فقال كل فريق منهم ما قاله في إنكار حقيقة دين الآخر[٤]. يقول محمد عبده: «إن فهم الآية لا يتوقف على هذه الرواية... وما روي في أسباب النزول عندنا غير كاف في ذلك، فلابد لنا من

---

(١) محمد عبده، ورشيد رضا: تفسير المنار، ١: ١: ٢٠.

(٢) المصدر نفسه، ج١ ع ١، ص١٤.

(٣) البقرة: ١١٣.

(٤) انظر على سبيل المثال: الطبري (محمد بن جرير، المتوفى ٣١٠هـ/٩٢٣م): جامع البيان في تأويل القرآن. تحقيق: أحمد محمد شاكر. بيروت ـ مؤسسة الرسالة ٢٠٠٠م، ٦: ٤٩٠؛ ابن كثير (إسماعيل بن عمر، المتوفى ٧٧٤هـ/١٣٧٣م): تفسير القرآن العظيم. تحقيق: سامي محمد سلامة. الرياض ـ دار طيبة، ١٩٩٩م، ٦: ٥٧.

البحث والاطلاع على تاريخ الملل والأمم التي تكلم عنها القرآن لأجل أن نفهمه تمام الفهم ونعرف ما يحكيه عنهم من العقائد والشئون والأعمال»[١].

ويعود محمد عبده إلى الدعوة إلى الإلمام بتاريخ الملل في تعليقه على الآية الكريمة ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢] يقول: «لا يفهم هذه الآية حق فهمها إلا من كان عارفًا بتاريخ الملل عند ظهور الإسلام وقبله»[٣].

ومن الملاحظ أن محمد عبده في تفسيره لجزء عم يتأثر بابن خلدون في نقد بعض الروايات؛ فقد تابعه في استبعاد روايات المفسرين الخاصة بإرم ذات العماد[٤]، ونبه إلى خطأهم بقوله: «وقد يروي المفسرون هنا حكايات في تصوير إرم ذات العماد كان يجب أن ينزه عنها كتاب الله فإذا وقع إليك شيء من كتبهم ونظرت في هذا الموضع منها فتخط ببصرك ما تجده في وصف إرم وإياك أن تنظر فيه»[٥].

هذا عن التفسير أما بالنسبة لفقه محمد عبده وفتاويه فإنه قد أدرك الأهمية الكبيرة للتاريخ الإسلامي بالنسبة لهما، وله في ذلك كلام في غاية الدلالة، يقول: «ما أضر بالفقه شيء كالجهل بالتاريخ؛ لأننا لو حفظنا تاريخ الناس ـ ومنه

---

(١) محمد عبده، ورشيد رضا: تفسير المنار، ١: ٥: ٣٥٣.

(٢) البقرة: ١٧٣.

(٣) محمد عبده، ورشيد رضا: المصدر السابق، ١: ٥٦: ٧٨.

(٤) مقدمة ابن خلدون، ١: ٢٩٩ـ٣٠٠.

(٥) محمد عبده: تفسير القرآن الكريم (جزء عم). القاهرة ـ الجمعية الخيرية الإسلامية، ١٣٢٢هـ، ٧٩؛ عبد الله محمود شحاتة: الإمام محمد عبده بين المنهج الديني والمنهج الاجتماعي. القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠م، ٢١٥.

عاداتهم وعُرفهم ومصالحهم في البلاد التي كان فيها المجتهدون الواضعون لهذا الفقه ـ لكنا نعرف من أسباب خلافهم ومدارك أقوالهم ما لا نعرفه اليوم ، فما كان ذلك الخلاف جزافًا ولا عبثًا. ألم تر أن الشافعي وضع بعد مجيئه إلى مصر مذهبًا جديدًا غير المذهب القديم الذي كان عليه أيام لم يكن خبيرًا بغير الحجاز والعراق ؟ وكذلك كان ما خالف به أبو يوسف أستاذه أبا حنيفة مما يرجع الكثير منه إلى ما اختبره من حال الناس في مصالحهم ومنافعهم وعرفهم ، فبالله كيف ينتسب امرؤ إلى إمام ويشتغل بعلم مذهبه وهو لا يعرف تاريخه وتاريخ عصره !»[١].

وقد أخذ محمد عبده بالبعد التاريخي في فتاويه ، وأحيانًا ما تتخلل فتاويه سياقات تاريخية مختلفة. وهذا ما نراه على سبيل المثال في الفتوى الخاصة بتعدد الزوجات[٢]؛ إذ يستعرض تاريخ هذه العادة عند الأمم والشعوب ، وعند العرب تفصيلًا.

سادسًا : جوانب من التاريخ الإسلامي في كتابات محمد عبده

ليس من تخطيط هذه الورقة الرصد الاستقصائي أو الإحصائي لإشارات التاريخ الإسلامي في كتابات محمد عبده بقدر الالتفات إلى كيفية ورود هذه الإشارات والسياقات التي وردت بها ، وكيفية التوظيف والنقد والاستخدام... إلخ. وهذا يتلاءم مع منهج محمد عبده نفسه في التعامل مع الحوادث التاريخية ، وهو ما يُفهم من قوله : «ليس من غرضنا في هذه الوريقات أن نلم بتاريخ الأمم عامة وتاريخ العرب خاصة... ولكنا نستعير من التاريخ كلمة يفهمها من نظر فيما اتفق عليه مؤرخو ذلك العهد نظر إمعان وإنصاف»[٣].

---

(١) محمد عبده ، ورشيد رضا : تفسير المنار ، ٤: ١٥: ٣٣.

(٢) محمد عبده : تعدد الزوجات. القاهرة ـ مجلة المنار ، مج٢٨ ج ١، ٢٩ شعبان ١٣٤٥هـ/ ٣ مارس ١٩٢٧م ، ٢٩ـ٣٥.

(٣) محمد عبده : رسالة التوحيد. القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٥م ، ٩٥.

وفي هذا الإطار يمكن القول أن محمد عبده أورد في مواطن مختلفة من كتاباته صفحات تاريخية سواء عن النواحي السياسية أو الحضارية المختلفة. ونجد لديه حديثًا عن تاريخ العرب قبل الإسلام، كما تناول بعض حوادث السيرة النبوية وعصر الرسول ﷺ، وزمن الخلفاء الراشدين، وكذلك عن العصرين الأموي والعباسي... إلى غير ذلك، ويمكن الإشارة إلى بعض الموضوعات التاريخية في كتاباته فيما يأتي:

تاريخ الدعوة الإسلامية وانتشار الإسلام

في البداية يمكن تناول دراسة محمد عبده للدعوة الإسلامية وانتشار الإسلام، وحديثه عن أن ذلك تم بسرعة لم يعهد لها نظير في التاريخ، ويرى محمد عبده في ذلك أن اتساع الدولة الإسلامية زاد في السعة على المملكة الرومانية بكثير[١]. ومع هذا الاتساع «انقسمت الممالك الإسلامية، في زمن من الأزمان، إلى ثلاثة أقسام، وتنازع الخلافة ثلاث شيع، كانوا العباسيون في آسيا (الشرق)، والأمويون في الأندلس من أوروبا (الغرب) والفاطميون في مصر من أفريقيا (الوسط)»[٢].

وفي دراسته لأسباب هذا الانتشار يقوم بتتبع تاريخ الدعوة الإسلامية من البداية، وما لقيه المسلمون الأوائل من تعذيب وعقبات[٣]. ويحدد محمد عبده وجه العجب في الانتشار السريع للإسلام خلال القرن الأول الهجري بقوله: «يدهش عقل الناظر في أحوال البشر عندما يرى أن هذا الدين يجمع إليه الأمة العربية من أدناها إلى أقصاها في أقل من ثلاثين سنة، ثم يتناول من بقية الأمم ما بين

---

(١) محمد عبده: الرد على فرح أنطون والاضطهاد في النصرانية والإسلام. (ضمن: الأعمال الكاملة)، ٣: ٣٢١.

(٢) المصدر نفسه، ٣: ٣٢٢.

(٣) محمد عبده: رسالة التوحيد، ١٢٧

المحيط الغربي وجدار الصين في أقل من قرن واحد، وهو أمر لم يعهد في تاريخ الأديان، ولذلك ضل الكثير في بيان السبب، واهتدى إليه المنصفون فبطل العجب»[١].

وبعد أن يضرب محمد عبده للعديد من الشواهد التاريخية الدالة على معاملة المسلمين الحسنة للمغلوبين، ورفعهم للمظالم القديمة، والمساواة في الحق بين المسلم وغير المسلم، وتحقيق العدالة ورد الحقوق لأصحابها[٢] ـ يخلص إلى أن أسباب انتشار الإسلام يمكن إجمالها في مقولته: «ومن هذا تعلم أن سرعة انتشار الدين الإسلامي، وإقبال الناس على الاعتقاد به من كل ملة، إنما كان لسهولة تعقله، ويسر أحكامه، وعدالة شريعته»[٣].

صفحات من التاريخ السياسي

يرى محمد عبده أن النظام السياسي في التاريخ الإسلامي اشتمل على أن «الخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم، ولا هو مهبط الوحي، ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة»[٤]. وقارن بين نظام الخلافة والنظام الثيوقرطي فيقول: «لا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة عند المسلمين ما يسميه الإفرنج (تيوكراتيك) أي سلطان إلهي، فإن ذلك عندهم هو الذي ينفرد بتلقي الشريعة عن الله، وله حق الأثرة بالتشريع، وله في رقاب الناس حق الطاعة، لا بالبيعه وما تقتضيه من العدل وحماية الحوزة، بل بمقتضى الإيمان..»[٥]. وينفي عبده الرأي

---

(١) محمد عبده: رسالة التوحيد، ١٢٧.

(٢) المصدر نفسه، ١٢٨-١٣٠.

(٣) المصدر نفسه، ١٣١.

(٤) الرد على فرح أنطون، (ضمن: الأعمال الكاملة)، ٣: ٣٠٧.

(٥) المصدر نفسه، ٣: ٣٠٨.

القائل بأن الإسلام يحتم قرن السلطتين الدينية والسياسية في شخص واحد[١]. ويضيف أنهم «يقولون : إن يكن للخليفة ذلك السلطان الديني أفلا يكون للقاضي أو للمفتي أو شيخ الإسلام. وأقول : إن الإسلام لم يجعل لهؤلاء أدنى سلطة على العقائد وتقرير الأحكام ، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية قررها الشرع الإسلامي ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعي حق السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربه ، أو ينازعه في طريق نظره»[٢].

ويُلاحظ أنه على الرغم من أن التفصيلات التاريخية العديدة[٣] التي يُقدمها محمد عبده يغلب عليها المعلوماتية التي تناسب التعليقات والشروح والمناقشات إلا أنها تحتوي أحيانًا على تحليلات تاريخية مهمة ، ومن ذلك تحليل الملابسات التي أدت لمبايعة عثمان بن عفان بالخلافة ، وكذلك التحليل الخاص بآثار الفتنة الكبرى.

والمقصود بالتحليل الأول قصة الشورى في اختيار الخليفة بعد وفاة عمر بن الخطاب ، والتي تتلخص في أن عمر رفض أن يلي ابنه الخلافة «ثم رأى أن يكل الأمر إلى ستة قال إن النبي ﷺ مات وهو راض عنهم ، وإليهم بعد التشاور أن يعينوا واحدًا منهم يقوم بأمر المسلمين ، والستة رجال الشورى هم : علي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم».

ويكمل محمد عبده حديثه بقوله : «كان سعد من بني عم عبد الرحمن كلاهما من بني زهرة ، وكان في نفسه شيء من علي كرم الله وجهه من قبل

---

(١) محمد عبده : الرد على فرح أنطون ، (ضمن : الأعمال الكاملة) ، ٣: ٣٠٨.

(٢) المصدر نفسه ، ٣: ٣٠٩.

(٣) انظر أيضًا : محمد عبده : شرح نهج البلاغة للشريف الرضي ، القاهرة ـ الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ٢٠٠٤م ، ١: ٤٤ـ٤٥ هامش (١) ، ٥٦ هامش (٣) و(٤) ، ٦٣ـ٦٤ هامش (٥) ، ٧٥ هامش (١) ، ٨٥ هامش (١) ، ٩٦ هامش (٦) ، ٢: ٦٨ هامش (٢) ، ٣: ٣ هامش (١).

أخواله لأن أمه حمنة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس ولعلي في قتل صناديدهم ما هو معروف مشهور. وعبد الرحمن كان صهرًا لعثمان لأن زوجته أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط كانت أختًا لعثمان من أمه. وكان طلحة ميالًا لعثمان لصلات بينهما على ما ذكره بعض رواة الأثر، وقد يكفي من ميله إلى عثمان انحرافه عن علي لأنه تيمي وقد كان بين بني هاشم وبني تيم مواجد لمكان الخلافة في أبي بكر».

كانت هذه هي المقدمات التي ساقها محمد عبده التي أدت إلى اختلافهم عندما اجتمعوا وتشاوروا؛ فانضم طلحة في الرأي إلى عثمان، وسعد إلى عبد الرحمن، والزبير إلى علي، ولما كان عمر قد أوصى بأن لا تطول مدة الشورى فوق ثلاثة أيام، وأن لا يأتي الرابع إلا ولهم أمير، وقال إذا كان خلاف فكونوا مع الفريق الذي فيه عبد الرحمن، وعليه خرج عبد الرحمن من المرشحين ومال إلى عثمان، كما أن سعد وطلحة مالا إلى عثمان للأسباب السابق ذكرها، فتكتل أربعة من الرجال الستة في مقابل الزبير فقط الذي مال إلى علي[1].

يُفهم من ذلك كله أن محمد عبده يقدم تفسيرًا تاريخيًا لحركة التكتلات الداخلية لهيئة الشورى، والتي نتج عنها اختيار عثمان دون غيره مما يدل ـ حتى ولو لم نتفق معه في تحليله ـ على حس تاريخي وإدراك للأبعاد القبلية والشخصية والنفسية.

وفيما يختص بالفتنة الكبرى يُلاحظ أن محمد عبده لم يتوقف طويلًا أمام حوادثها، وركز على ثلاثة جوانب:

أولها: حجم الأثر الذي أحدثته بداية هذه الفتنة؛ فذكر أن أحد أركان هيكل الخلافة قد هوى بسبب هذه الأحداث، كما أن اصطدام الإسلام وأهله أدى إلى

---

[1] محمد عبده: شرح نهج البلاغة، ١: ٣٤ هامش (١).

حدوث صدمة زحزحتهم عن الطريق التي استقاموا عليها، وفتح للناس باب لتعدي الحدود التي حدها الدين فقد قتل الخليفة بدون حكم شرعي[١].

وثانيها: البحث عن الجذور التاريخية لنشأة مذاهب الغلاة في التاريخ الإسلامي، عن طريق حديثه عن عبد الله بن سبأ[٢].

وثالثها: النتائج بعيدة الأثر عن الأوضاع السياسية خاصة ما يرتبط بالنواحي الدينية والاجتماعية. فيقول: «أخذ الأحزاب في تأييد آرائهم كل ينصر رأيه على رأي خصمه بالقول والعمل، وكانت نشأة الاختراع في الرواية والتأويل، وغلا كل قبيل، فافترق الناس إلى شيعة وخوارج ومعتدلين، وغلا الخوارج فكفَّروا من عداهم، ثم استمر عنادهم وطلبهم لحكومة أشبه بالجمهورية، وتكفيرهم لمن خالفهم زمنًا طويلًا، إلى أن تضعضع أمرهم، بعد حروب أكلت كثيرًا من المسلمين... وغلا الشيعة فرفعوا عليًا أو بعض ذريته إلى مقام الألوهية أو ما يقرب منه، وتبع ذلك خلاف في كثير من العقائد»[٣].

صفحات من التاريخ الحضاري

وفيما يختص بالنواحي الحضارية فإنه توجد صفحات طويلة في كتابات محمد عبده حول المنجزات الحضارية في التاريخ الإسلامي. ومن ذلك:

* اشتغال المسلمين بالعلوم الأدبية والإنسانية ثم العقلية والكونية طوال التاريخ الإسلامي، وأن فترات النزاع على أمر الخلافة خلال القرن الأول لم تشغل المسلمين عن العلوم والآداب[٤].

---

(١) محمد عبده: رسالة التوحيد، ١٥-١٦.

(٢) المصدر نفسه، ١٦.

(٣) المصدر نفسه، ١٦.

(٤) المصدر نفسه، ٣: ٣١٩-٣٢٠.

* الحديث عن بغداد باعتبارها عاصمة العلم والمدنية في العصور الوسطى، وازدهار حركة الترجمة عن اللغات المختلفة كاليونانية والسريانية[١].

* إظهاره للدور الذي قام به الخلفاء والأمراء في التشجيع على العلم والفكر، والاهتمام بإنشاء المدارس في كل الأقطار، وانتشار دور الكتب العامة والخاصة[٢].

* ومما عرض له أيضًا أسبقية العرب والمسلمين في العديد من المجالات الحضارية، مثل الكيمياء وعلم الهيئة وكروية الأرض والساعات الدقاقة و الزوالية. وكذلك اكتشافهم لقوانين ثقل الأجسام، ووضعهم للجداول الخاصة بالأرصاد الفلكية[٣].

* ويثبت محمد عبده الأسبقية للعرب والمسلمين في الوصول للقواعد العلمية التي تقوم على التجربة والمشاهدة، ناقضًا بذلك القول بأسبقية الغرب في ذلك، قائلًا أن «أول شيء تميز به فلاسفة العرب عمن سواهم من فلاسفة الأمم هو بناء معارفهم على المشاهدات والتجريبات»[٤].

* كما بين محمد عبده التأثير الذي أحدثته الحضارة الإسلامية في أوروبا، وذلك بالتركيز على أثر ابن رشد (ت٥٩٥هـ/١١٩٨م) وتلاميذه خصوصًا في جنوب فرنسا وإيطاليا[٥]. و أشار إلى التأثير العلمي والحضاري الذي أحدثته الحروب الصليبية في تغيير نظرة الأوروبيين إلى المسلمين وحضارتهم[٦].

---

(١) محمد عبده: رسالة التوحيد، ٣: ٣٠٤-٣٠٥، ٣٢٠.

(٢) المصدر نفسه، ٣: ٣٢٠-٣٢١، ٣٢٦.

(٣) المصدر نفسه، ٣: ٢٩٠، ٣٢٣-٣٢٤.

(٤) المصدر نفسه، ٣: ٣٢٣.

(٥) المصدر نفسه، ٣: ٢٨٧-٢٨٩.

(٦) المصدر نفسه، ٣: ٢٨٦.

وعامة فمن الملاحظ من خلال استشهادات محمد عبده التاريخية عدة ملاحظات:

١. الاعتماد على اختيار الروايات المستقرة مع الاختصار حينًا والتفصيل حينًا آخر.

٢. غلبة أسلوب السرد التاريخي، وإن كان يستشف منه التدقيق في اختيار ما يتم إيراده، بعيدًا عن نقد الروايات المختلفة المتصلة بحادثة واحدة وتقديم أدلة استبعاد بعضها وتقرير بعضها الآخر.

٣. لا يذكر غالبًا المصادر التي اعتمدها، بل يعتمد فيما يبدو على منهج ذكر الحقائق وفقًا لما استقر عليه المؤرخون الثقات الذين ذكرهم في مواطن أخرى، مثل: ابن الأثير والمسعودي وابن خلدون وأبي الفداء[1].

سابعًا: موقع التاريخ الإسلامي في مقام الرد والسجال العلمي

يمكن للمستوعب لكتابات محمد عبده أن يرى بسهولة أنه استخدم التاريخ الإسلامي كإحدى الآليات في الرد على الاتهامات التي وجهها البعض من منتقدي الإسلام وتاريخه. وقد اشتهر في ذلك ردان:

أولهما: رده على جابريل هانوتو (وزير خارجية فرنسا) الذي نشر سنة ١٩٠٠م مقالًا في صحيفة (لوجورنال) الفرنسية، تحت عنوان (موقفنا من الإسلام والمسألة الإسلامية) ضمنه عدة مغالطات تاريخية؛ اضطرت محمد عبده لأن يرد عليه ويلومه على استخدامه الخاطئ للمعلومات التاريخية وتوظيفه السيء لها في محاولة منه للتأثير على أفكار الفرنسيين. وفند عبده دعاوى هانوتو مثبتًا ما حمله الإسلام لأوروبا من مدنية كانت «أول شرارة ألهبت نفوس الغربيين فطارت بها إلى

---

[1] محمد عبده: كتب المغازي وأحاديث القصاصين. (ضمن: تاريخ الأستاذ الإمام)، ٢: ٣٥٠.

المدنية الحاضرة. كانت من تلك الشعلة الموقدة التي كان يسطع ضوؤها من بلاد الأندلس على ما جاورها، وعمل رجال الدين المسيحي على إطفائها مدة قرون فما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا»[١].

وأوضح في رده أيضًا الفروق الحضارية بين تاريخ الإسلام والتاريخ الأوروبي خاصة فيما يرتبط بالسلطة الدينية؛ فيقول: «لم يعرف المسلمون في عصر من الأعصر تلك السلطة الدينية التي كانت للبابا عند الأمم المسيحية عندما كان يعزل الملوك، ويحرم الأمراء، ويقرر الضرائب على الممالك، ويضع لها القوانين الإلهية»[٢].

ويستند عبده في ذلك إلى أن الشريعة الإسلامية قررت «حقوقًا للحاكم الأعلى، وهو الخليفة أو السلطان، ليست للقاضي صاحب السلطة الدينية، وإنما السلطان مدبر البلاد بالسياسة الداخلية، والمدافع عنها بالحرب أو بالسياسة الخارجية، وأهل الدين قائمون بوظائفهم، وليس له عليهم إلا التولية والعزل، ولا لهم عليه إلا تنفيذ الأحكام بعد الحكم ورفع المظالم إن أمكن»[٣].

ويؤكد ذلك ومعترفًا في الوقت نفسه بمظالم بعض الخلفاء ومثالبهم عبر التاريخ الإسلامي «أمراؤنا السابقون لو اعتبروا أنفسهم أمراء الدين لما استطاعوا المجاهرة بمخالفته في ارتكاب المظالم والمغالاة في وضع المغارم والمبالغة في التبذير الذي جر الويل على بلاد المسلمين»[٤].

أما الرد الثاني فكان على فرح أنطون (١٢٩١-١٣٤٠هـ/١٨٧٤-١٩٢٢م)

---

(١) محمد عبده: الرد على هانوتو، (ضمن: تاريخ الأستاذ الإمام)، ٢: ٤١٧.

(٢) المصدر نفسه، ٢: ٤٦١-٤٦٢.

(٣) المصدر نفسه، ٢: ٤٦٢.

(٤) المصدر نفسه، ٢: ٤٦٢.

في مقالته عن الفيلسوف ابن رشد في صحيفة الجامعة والتي ورد في سياقها تعريضًا كذلك بالإسلام والتاريخ الإسلامي. ومن ردود محمد عبده على سبيل المثال :

١ـ فيما يختص بالاتهامات المتعلقة بالحرب في الإسلام، نقد محمد عبده الرأي القائل بأن الدين الإسلامي دين جهادي، شرع فيه القتال، ولهذا ففي طبيعة الدين روح الشدة على من يخالفه على عكس الدين المسيحي الذي لم يشرع فيه[١]. ووظف في رده ـ بطبيعة الحال ـ التاريخ الإسلامي[٢].

٢ـ الرد على الاتهامات الخاصة بأن المسلمين تسامحوا مع أهل النظر منهم ولم يتسامحوا مع مثلهم من أرباب الأديان الأخرى، وذلك عن طريق ذكر الأدلة التاريخية ردًا على بُطلان ذلك وعدم صحته تاريخيًا، ومن ذلك ذكر أسماء جماعة كبيرة من المسيحيين والصابئة وغيرهم ممن بلغوا من الحظوة عند الخلفاء وعامة المسلمين وخاصتهم ما لم يبلغه غيرهم[٣].

٣ـ واتهام آخر رد عليه محمد عبده مستخدمًا أحداث التاريخ الإسلامي ضمن أدواته، وهو الاتهام القائل بأن طبيعة الدين الإسلامي تأبى التسامح مع العلم، بخلاف طبيعة الدين المسيحي التي تيسر لأهله ذلك التسامح. وفي هذا الرد أكد محمد عبده على قيمة التسامح في الإسلام بطرح العديد من الاستشهادات التاريخية الدالة على ذلك[٤]. ومن ذلك : تنويهه بأن سماحة الإسلام أباحت أن يأخذ المسلم العلم عن غير المسلم، وإبرازه إدخال المسلمين لأهل البلاد المفتوحة في أعمالهم، واستيعاب المسلمين لهم ومخالطتهم بهم[٥].

---

(١) محمد عبده : الرد على فرح أنطون، (ضمن : الأعمال الكاملة)، ٣: ٣٠٩.

(٢) المصدر نفسه، ٣: ٣١٠.

(٣) المصدر نفسه، ٣: ٢٧١ـ٢٧٤، ٢٩٦.

(٤) المصدر نفسه، ٣: ٣٥٧ـ٣٥٨.

(٥) المصدر نفسه، ٣: ٣١٩.

ويُقدم محمد عبده تفسيرًا لبعض مظاهر الاضطهاد والقتل التي وقع تحت طائلتها بعض العلماء في التاريخ الإسلامي، بأن ذلك كان سببه «حماقة الملوك وإغراء الفقهاء وأهل الغلو في الدين»، و«أن الذي أثار أولئك عليهم ليس مجرد العصبية للدين... وإنما تجد الحسد هو العامل الأول في ذلك كله، والدين آلة له؛ ولهذا لا ترى مثل ذلك الأذى يقع إلا على قاضي قضاة كابن رشد... أو وزير أو جليس خليفة أو سلطان، أو ذي نفوذ عظيم بين العامة»[١].

وفي سياق آخر يقوم محمد عبده بالرد على الرأي القائل بأن التاريخ الإسلامي شهد مقتل البعض كالزنادقة لغلوهم في الفكر، ويرى في ذلك: «إن كثيرًا من الغلو إذا انتشر بين العامة أفسد نظامها واضطرب أمنها، كما كان من آراء الحلاج وأمثاله، فتضطر السياسة للدخول في الأمر لحفظ أمن العام، فتأخذ صاحب الفكر، لا لأنه تفكر ولكن لأنه لم يرد أن يقصر حق الحرية على شخصه، بل أراد أن يقيد غيره بما رآه من الحرية لنفسه، مع أن غيره في غنى عما يراه هو حقًا له، وتخشى الفتنة إذا استمر مدعي الحرية في غلوائه»[٢].

والملاحظ بوجه عام أن دواعي السجال العلمي عند محمد عبده أدت إلى اعتماده في ردوده على كتابات المؤرخين والفلاسفة المسيحيين والمفكرين الغربيين، وليس على كتابات المسلمين؛ فيرجع إلى جيبون، وديلامبر، ودرابر، وجوستاف لوبون... وغيرهم[٣]. وهذه الملاحظة أكدها عبده بقوله: «أرجع في جميع ما أذكر إلى كتب المؤرخين والفلاسفة من المسيحيين»[٤].

---

(١) محمد عبده: الرد على فرح أنطون، (ضمن: الأعمال الكاملة)، ٣: ٣٢٩.

(٢) المصدر نفسه، ٣: ٣٢٨.

(٣) المصدر نفسه، ٣: ٢٨٦، ٣١٨-٣١٩، ٣٢١-٣٢٢، ٣٢٥.

(٤) المصدر نفسه، ٣: ٢٩٦.

ثامنًا : الجمود الذي أصاب حركة التاريخ الإسلامي

يرصد محمد عبده بدايات الانحراف في التاريخ الإسلامي الذي أتى بتأثيرات يونانية وفارسية : الأولى عن طريق الترجمة ، والثانية عن طريق السياسة بالاعتماد على الفرس وبداية علم الكلام. وحدوث فتنة القول بخلق القرآن أو أزليته[١].

كما تطرق إلى تناول ما أسماه «الفتور والخمود الذي نشأ عن التقليد والجمود»[٢] ، وقد استدعى ذلك منه بحث الجذور التاريخية لهذه العلة تمهيدًا لإصلاحها ، ومن ثم التطرق إلى التاريخ الإسلامي. ويرى أن أسباب الجمود الذي أصاب المسلمين ترجع إلى أسباب أهمها:

١. علة عرضت للمسلمين عندما دخلت على قلوبهم عقائد أخرى ساكنت عقيدة الإسلام في أفئدتهم.

٢. استعارة عادات وشعائر من الأمم الأخرى : متمثلة في : «عبادة الأولياء والعلماء والمتشبهين بهم ما فرق الجماعة وأركس الناس في الضلالة ، ...المتأخر ليس له أن يقول بغير ما يقول المتقدم ، وجعلوا ذلك عقيدة ، حتى يقف الفكر ، وتجمد العقول... وأن كل ما هو من أمور الجماعة والدولة فهو ما فرض فيه النظر على الحكام دون من عداهم ، ومن دخل في شيء من ذلك من غيرهم فهو متعرض لما لا يعنيه ، وأن ما يظهر من فساد الأعمال واختلال الأحوال ، ليس من صنع الحكام وإنما هو تحقيق لما ورد في الأخبار من أحوال آخر الزمان ، وإنه لا حيلة في إصلاح حال ولا مآل وأن الأسلم تفويض ذلك إلى الله ، وما على المسلم إلا أن يقتصر على خاصة نفسه»[٣]. ومن الواضح في هذا التحليل التاريخي المهم رصد

---

(١) محمد عبده : رسالة التوحيد ، ١٨.

(٢) محمد عبده : الرد على فرح أنطون ، (ضمن : الأعمال الكاملة) ٣: ٣٦٠.

(٣) المصدر نفسه ، ٣: ٣٣٦-٣٣٧.

محمد عبده لخمسة من المظاهر التي ساعدت على الجمود.

٣. يذكر محمد عبده أن السياسة كانت سببًا في تمكن علة الجمود في المجتمع الإسلامي، ويربط بذكاء بين التراجع السياسي وما تبعه من التراجع العلمي والحضاري، مما أدى إلى الجمود الذي أصاب التاريخ الإسلامي خلال فترات طويلة. ويذكر أن أخطاء بعض الخلفاء العباسيين الذين ظنوا أن الجيش العربي قد يكون عونًا لخليفة علوي، فأرادوا أن يتخذوا لهم جيشًا أجنبيًا من الترك والديلم وغيرهم من الأمم التي ظنوا أنهم يستعبدوها بسلطانهم[١]. وكانت نتيجة ذلك الإكثار من الجند الأجنبي أن صار الرؤساء منهم، ثم تغلب رؤساء الجند على الخلفاء، واستبدوا بالسلطان دونهم، وصارت الدولة في قبضتهم[٢]. ولما كان العلم عدو هؤلاء لأنه هو «الذي يُعرِّف الناس منزلتهم، ويكشف لهم قبح سيرهم؟ فمالوا على العلم وصديقه الإسلام ميلتهم»[٣].

وفي نهاية هذه الدراسة يبقى الخروج بالعديد من النتائج فيما يختص تحديدًا بوضعية التاريخ الإسلامي في فكر حركة التجديد، وأهمها:

أولًا: تعاظم الاهتمام بالتاريخ الإسلامي في خطاب الإمام محمد عبده باعتباره واحدًا من كبار المجددين في العصر الحديث، ولم يكن هذا الاهتمام مقتصرًا على نواحي معلوماتية وحدها بل كانت منطلقًا لحركة التجديد. ولم يكن كذلك مقتصرًا على النخبة وحدها، بل كان خطابًا عامًا وجهه إلى العامة في دروسه وتفسيره للقرآن وفي محاضراته التعليمية، كما وجهه إلى النخبة في كتبه ولقاءاته ومجالسه الخاصة.

---

(١) محمد عبده: الرد على فرح أنطون، (ضمن: الأعمال الكاملة) ٣: ٣٣٥.

(٢) المصدر نفسه، ٣: ٣٣٦.

(٣) المصدر نفسه، ٣: ٣٣٦.

ثانيًا : يؤكد المشروع التجديدي للإمام محمد عبده ضرورة العودة إلى التاريخ الإسلامي في حركات التجديد التي نريدها ، وأنه لا يمكن الفصل بين عملية التجديد وحركة التاريخ الإسلامي؛ إذ أن الحضارة الإسلامية بعد وصولها لمستويات راقية من التمدن والازدهار حدث لها تراجع وتدهور وانكسار وانحطاط ، وعلى هذا فإن حالة التجديد هي الأساس لمواجهة ذلك كله ، والسير مرة أخرى في ركب الحضارة الإنسانية منتجين فيها لا مستهلكين ، أصلاء فيها لا عالة على الأمم الأخرى في كل شيء. والتجديد يحتاج إلى فهم التاريخ للوصول إلى الأسباب والكيفيات التي أدت إلى حالة التدهور تمهيدًا لتفعيل عملية التجديد ذاتها.

ثالثًا : اتسم جهد محمد عبده في التاريخ الإسلامي بصفتين : الأولى معرفية تعرض لحوادث ومواقف تاريخية ، والثانية غائية تهدف إلى مواجهة التراجع الحضاري الذي أصيب به تاريخ المسلمين ، وهذه الغاية ليست انحيازية أو غير موضوعية أو تقوم بتزييف الوعي من أجل رغبة مسبقة ، ولكنها تتناول الموضوع برؤية نقدية تسعى إلى الوصول إلى حقيقة الأمراض الحضارية في تاريخ المسلمين لينبني عليها تقديم البرنامج الإصلاحي المناسب.

رابعًا : كان التيار التجديدي الذي وضع أسسه محمد عبده يعتمد النقد والآليات النقدية في التعامل مع التاريخ الإسلامي ، وهذا التيار يختلف تمامًا عن ثلاثة اتجاهات أخرى : أولها يعتمد على انتقاء حوادث تاريخية إيجابية بهدف الفخر والتباهي أو تقديس التاريخ الإسلامي. وثانيها ينتقي كذلك من التاريخ جوانب سلبية وانحرافات وأخطاء وكأنها هي الصورة المعبرة عن التاريخ الإسلامي. وثالثها التي ترى أن النهضة أو التنوير أو الحداثة معناها إهمال الماضي وإحداث قطيعة معه ، وجعل أساس الانطلاق هو الحضارة الغربية الحديثة ، والاقتداء بها والاندماج الكامل فيها.

خامسًا : يمكن القول تأسيسًا على التجربة الفكرية للإمام محمد عبده : إن فهم التاريخ الإسلامي واستيعابه يُمثل زاوية مهمة من زوايا مثلث التجديد الذي يضم أيضًا العودة للأصول والنصوص، ومعرفة الواقع المعاصر ومشكلاته وقضاياه.